

من أوراق الرئيس (11)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

وأخرجت ورقة قائلاً: عندي سبعة مطالب محددة.

لم تلق مذكرات سياسية في العالم العربي ما لقيته (أوراق) الرئيس السادات التي تنشرها معنا جريدة (السياسة) اليومية في السعودية..

وأهمية "أوراق" الرئيس السادات هذه: أنها للمرة الأولى في التاريخ يسجل رئيس دولة عربية تفسيراً وتحليلاً للعلاقات بين مصر وروسيا. ومن واقع تجربته: كرئيس لمصر، شارك في كل الجهود المضنية من أجل تصحيح مسار الأحداث، والمساهمة في صنعها. ثم كان أسلوبه واضحاً، وكان منطقته موضوعياً. وكان وفي جميع الأحوال مصرياً عربياً مخلصاً. وكان يتجمل بالصدق والصبر وهو يضع مصر فوق كل اعتبار شخصي ونفسي.

ولذلك يؤكد دائماً: أنه من أجل مصر هانت عليه أشياء كثيرة. وتهون سوف تهون. فليست القضية قضية شخص يرأس دولة، ولا قضية ما أصابه في شخصه، ولكن المهم والأهم دائماً: مصر وما سوف تحصل عليه مصر وما تصل إليه وما تحققه..

وتوجه الرئيس السادات في "أوراقه" هذه إلى المؤرخين ودارسي التاريخ وإلى شباب مصر ونصف سكان مصر دون الخامسة والعشرين - يحدثهم عن الذي جرى ويجري وراء الستار. وقد أخذ الرئيس السادات نفسه بمنتهى الشدة: فقد آل على نفسه أن يكون صريحاً، وألا يحجب شيئاً أحد.. وألا يحجب ما يحدث لمصر ويصيبها عن مصر وعن الأمة العربية..

وإيماناً منه بأهمية ما حدث، فقد سجل التاريخ، تاريخه هو وتاريخ دوره القيادي ودوره الريادي وثورته، والثورة التي سبقته وساهم في تحويلها وتطويرها وتصحيح مسارها ومدارها.. كل ذلك سجله بصوته... فالتاريخ: ذاكرة الشعوب.. والتاريخ هو المسرح الذى يتحقق عليه وبه المزيد من التحرر من الظلم والجوع والمرض والجهل.. والرئيس السادات إذا كانت السياسة هي حياته، فإن الحديث وصناعة الكلام وسيلته إلى الثورة على الأوضاع، ولذلك كان مجده العظيم: عندما حرر الكلمة وأصحاب الأقلام، فقد كان صحفياً وكان مؤلفاً وقد عرف في سجنه متعة القراءة ولذة أن يتعلم اللغات وأن يحرص على بها في أرفع المناسبات الدولية..

وهو في هذه الحلقة من "الأوراق" يكمل رحلته الرابعة في عام واحد إلى موسكو، وفيه ما فيه.. وأحلامه تسبقه إلى موسكو.. وهو يعلم عن يقين، أن هذه الزيارة وما تلاها من أحداث هي "فقرة" هامة في البرنامج الاستعراضى الكبير الذى يسبق زيارة الرئيس نيكسون إلى موسكو وقد اتفق مع السوفيت في شيء واحد: أن نيكسون ليس قادراً على أن يحل أو يربط أو يرتبط ولكن لا بد من التأثير عليه بالقوة.. أى باستعراض القوة..

وسوف يبدو ذلك أوضح فيما بعد عندما يروى الرئيس السادات كيف جرى كل شيء وتعثر حتى حرب أكتوبر وبعدها.. حتى اليوم..

ومن عادتي عندما أسافر في مهمة أن أفكر كثيراً فيما سوف يحدث.. ويدور في نفسى حوار طويل أجيب فيه عن كل التساؤلات. واستعرض الأحداث والصور. واستوقفها وأتوقف عندها.. فإذا نزلت من الطائرة كانت كمن قرأ كل ملفات القضية واتخذ قراراً. أو على الأقل كنت فاهماً بوضوح شديد لكل ما سوف أقول ويقال لى.. وفى رحلتي الرابعة هذه إلى موسكو استعرضت كل الصور وكل الأحداث وكل الوجوه. وكل الذى قلت وقيل لى.. وما أثارنى وما أغضبنى وما هدا نفسى.. ثم الإهانات التى لحقت بى وبمصر وبقواتنا المسلحة.. وتنتهى هذه المراجعة المحاسبية والمناقشة إلى

نهاية واحدة: لابد من الصبر. فأنا فى حاجة إلى مزيد من القوة.. والمعركة طويلة.
وليس أمامى إلا مصدر واحد للسلاح وصيدى وكبير هو الاتحاد السوفيتى..

وهذه حقيقة قلتها مرات كثيرة ولكن الذى أقوله لنفسى شئ، والذى أقوله
للآخرين شئ آخر.. فأنا وحدى الذى يعرف الحقيقة، وأكتمها عن الناس وقد حدث هذا
كثيراً كما قلت، وكما سوف أروى عند الإعداد لحرب أكتوبر والجسر الجوى وما بعد
ذلك - لأن لى هدفاً من هذه المذكرات هو أن أعرض لجانب خطير من تاريخ مصر،
بصدق وأمانة. وقد آلت على نفسى أمام الله وأمام شعبنا أن أضع الحقيقة مجردة من
الغرض والهوى، وعلى الأجيال القادمة أن تحكم لنا أو علينا، والله على ما أقول شهيد..

وفى الطائرة ساءلت نفسى: يا ترى هل يتغير شئ هذه المرة؟ هل من مظاهر
استعراض القوة أن يتظاهر السوفيت بالعطاء والسخاء ويمنحونى بعض ما طلبت من
أسلحة، وما تعهد به كوسيجين ذلك السياسى العنيد العتيد؟ إنها فرصة أمام السوفيت
ليؤكدوا للأمريكان أنهم هم الذين قرروا أن سنة 1971 لن تكون سنة الحسم.. وإذا أفلح
الروس فى إقناع الأمريكان بذلك لا يهيم.. وإنما المهم أن يعطونى سلاحاً.. لقد ذهبت
سنة الحسم، ولا بد أن أفكر فى هذه السنة وما بعدها.. فهل سيتغير السوفيت قليلاً أو
كثيراً؟ هل أعود هذه المرة أحسن حالاً؟ أتمنى ذلك.. وإن كانت فى داخلى حاسة غريبة
تؤكد لى أن شيئاً من ذلك لن يحدث.. إن هذه الحاسة التى فى أعماقى لم تكذب قط. هل
هى الفراسة؟ هل هى الحاسة السادسة؟ إنها لم تخنى مرة واحدة.. فأنا استعين بها فى
الحكم على الأشخاص وعلى الأمور الحاسمة فى حياتى السياسية. تمنيت من الله أن
تكذب هذه الحاسة هذه المرة وأن أعود من موسكو خفيف القلب ثقيل الجيب.. ربنا
كريم..

وتوقفت الطائرة فى مطار موسكو، ووجدت أن كوسيجين رئيس الوزراء فى
انتظارى. والأصول أن يكون برجنييف هو الذى فى انتظارى. فهو الرجل الأول فى
بلده، كما أتنى الرجل الأول فى بلدى. هنا أحسست بضيق شديد. فحاستى السادسة لم
تكذب هذه المرة.. وهذه هى البداية. فرئيس الوزراء الرجل الثانى جاء لاستقبالى.

وتلاشت حاستى السادسة مع الأحضان والقبلات والتحيات والانحناءات. وتغطيت
بالبطو كثيف ورثته مع الأيام والمعاناة اسمه: الصبر والمزيد من الصبر..

ولم يكن يهمنى طبعاً أن يجىء بودجورنى رئيس الدولة لاستقبالى. لأنه الرجل
الثالث عندهم.. وأنا لا أحب أن أراه.. صحيح أن مجيء كوسيجين أهون من مجيء
بودجورنى. ولن مجيء كوسيجين لا يليق..

واتجهنا إلى الكرملين.. وسمعت اعتذاراً من عدم مجيء برجنيف وكلمات حلوة
كثيرة. كل ذلك لا يهم، لأنه لا قيمة له. فأنا لم أذهب إلى موسكو لأشترك فى مهرجان
للشعراء والأدباء وليسمعونى أجمل العبارات والتحيات فأنا أعرف لماذا أنا جئت، وهم
أيضاً يعرفون. والله وحده يعلم ما أحببت قط أن أجيء إلى هذه المدينة، ولا أن أرى ما
رأيت وأسمع ما كرهت أن أسمع.

وفى الكرملين جلسنا حول المائدة. وكل الذى يهمنى هو أن يكون برجنيف
موجوداً. وكان هناك. وكوسيجين وجريتشكو وذلك الرجل الكريه بونامارييف المسئول
عن نشاط الأحزاب الشيوعية فى العالم وفى العالم العربى، وهو الذى استطاع أن
يخرب لهم الشرق الأوسط، بغاوته واعتماده على المعلومات التافهة، وعلى أشخاص
أكثر تفاعلاً فى تقدير الموقف فى الشرق الأوسط.. كان هذا الرجل موجوداً أيضاً..
ولكنهم جميعاً ظلال فى الصور.. أو ظلال للتمثال الحقيقى وهو برجنيف. فأنا استريح
إلى هذا الرجل لأنه رجل أنه عقلية سياسية متفهمة وقادرة على الحكم وعلى القرار.
وما دام هو موجوداً، فكل شئ يهون.. أو كل واحد من هؤلاء يهون فى عيني فلا يصبح
شيئاً. لأنه هو الرجل وهو الذى أقصده بالزيارة والحوار والقرار هذا السؤال:

- يا أخ برجنيف.

- نعم...

أريد أن أسأل وأن أبدأ بالكلام معك.. فقد تكلمت مع نفسى كثيراً فى الطريق بين
القاهرة وموسكو.. وأريد أن أسمعك ما دار فى نفسى..

وعلى استعداد أن أسمع كل ما تقول. تفضل سيادتك..

سؤال بسيط جداً .. هل كان من الممكن أن يجئ نيكسون إلى موسكو في 20

مايو القادم لولا ما حدث في فيتنام في الثلاثة الشهور الأخيرة؟

- أريد أن توضح لي ما تقول..

- هذا بالضبط ما أريد.. هل كان من الممكن أن يجئ الأمريكان إلى هنا، لولا الهزيمة العنيفة التي أصيبوا بها في فيتنام بسبب السلاح السوفيتي المتطور الذي يستخدمه الفيتناميون؟ .. هل كان هذا من الممكن لولا الهزيمة الحقيقية التي أصابت أمريكا في فتنام، والتي هزت صورتها في العالم كله؟. هل كان من الممكن أن يحدث أى تحرك سياسى بغير هذا التحرك العسكرى العنيف؟..

- الآن فهمت.

- هل توافقنى على ما أقول؟..

- نعم أوافقك على هذا التحليل..

- يعنى من رأيك أن التحرك السياسى جاء نتيجة للتحرك العسكرى؟..

- نعم ألا ترى أن هنا تشابها بل تطابقاً مؤكداً بين الذى حدث في فيتنام وبين الذى أريده أن يحدث في الشرق الأوسط؟..

- نعم أرى ذلك.

- إذن أنت ترى أننا في مصر لا يمكن أن نتحرك سياسياً دون تحرك عسكرى؟..

- أنا أفرك على ذلك تماماً..

- ألا تلاحظ أن هذا بالضبط ما أطلبه وما طلبته. وما وعدتني به أكثر من مرة؟ فالذى حدث فى فيتنام صورة صارخة هائلة لما يجب أن يحدث عندنا.
- ألا ترى أن الذى حدث فى فيتنام هو شئ عجيب: لا أنتم أكملتُم هزيمة الأمريكان، ولا الأمريكان أكملوا الانتصار عليكم؟..
- تمام ..

- إذن هذا التحرك.. هذه الصدمة العسكرية هى التى أدت إلى هذا التنشيط السياسى.. إلى هذا الوفاق.. أو محاولة الوفاق.. أو وضع الأيدى فى الأيدى.. تمهيداً لوضع السلاح..
- أوافقك تماماً..

- لقد قال إنه يوافقنى تماماً .. واسترحت نفسياً. وكأن جبلاً على صدرى قد تحول إلى هباء بعيداً عنى .. وأحسست أننى قد استرجعت قلبى.. وتراجعت فى مقعدى وأرحت ظهرى ومددت ساقى تحت المائدة.. أو تخيلت أننى فعلت ذلك كله. فاسترحت.. فقد أردت أن يفهمنى الرجل. وقد فهمنى. وقد أقرنى على كل ما قلت لنفسى.. ولما أطلعت على دخيلة نفسى، أعلن أمام الجميع أن تحليلى للأمور سليم، واكتفيت بهذه الجرعة السياسية من الرجل الأول فى روسيا. ورأيت فى ذلك بداية طيبة، ولكن حاستى السادسة عادت إلى الظهور. وتضايقت لذلك فقد تمنيت أن تخوننى هذه الحاسة هذه المرة، أو تتخلى عنى فى الكرملين.. وتعاودنى فى الطائرة أو حتى فى القاهرة.. ولكن هذا ما حدث. فقد أخذت أتطلع إلى الوجوه من جديد. وأتطلع إلى برجنييف بالذات. فهو الرجل الذى قصده. والذى يعنينى قبل كل شيء وكل واحد فى هذه البلاد.

ثم عدت أقول له كمن يريد أن يطمئن لأخر مرة، كأننى لا أصدق ما سمعت:

- هل صدقتنى الآن؟ ..

- قال: تماماً .
 - ألم أقل لك هذا فى الزيارات السابقة؟..
 - أنت قلت ذلك .
 - هل اتفقنا الآن؟..
 - نعم..
- وانتهزت هذا الاتفاق الذى سادنا جميعاً، لكى استأنف الكلام من جديد. وكما يقول المثل عندنا: زيارة وتجارة.. فقلت له:
- يا أخ برجنيف ما الذى تتوقعه من زيارة نيكسون لكم فى 20 مايو القادم؟..
 - قال : لا نتوقع أى شيء..
 - قلت : كيف؟..
 - قال: أنت تعلم أن سنة 1972 هذه هى سنة الانتخابات الأمريكية.. وهى سنة من الصعب فيها على الرئيس الأمريكى أن يتخذ قراراً حاسماً .. لأنه يخطب ود الشعب كله.. ولا يريد إلا أن يفوز بأصوات الجميع.. وسوف يحرص على أصوات اليهود.. ومعنى ذلك أنه لن يتورط فى قرار فى الشرق الأوسط .. فيغضب اليهود وأنت تعرف وزن اليهود فى أمريكا.. وإذا لم يكن موقفه سيئاً، فسوف يكون أسوأ.. ومعنى ذلك أننا سوف نلتقى برئيس أمريكى فى وضع سيئ.. أو بعد قليل سيكون فى أسوأ حالاته..
- قلت : وأنا أوافقك على هذا التحليل أيضاً. أوافقك تماماً.
- هل أنت متفق معى فى هذا؟
 - نعم. أنت وافقتنى فى تحليلى للموقف فى فيتنام. وأنا أوافقك على تحليلك للموقف فى أمريكا. إذن نحن متفقان..

- نعم تماماً .
- كم نسبة الاتفاق فيما بيننا؟..
- مائة فى المائة.
- يعنى أنت وافقتى على أنه بدون الهجوم الكبير الذى شنه الفيتناميون بالأسلحة السوفيتية على الأمريكان ما جاء الرئيس نيكسون إلى هنا؟..
- هذا صحيح.
- وبدون هذا الهجوم العنيف ما أعادت أمريكا مندوبها فى مؤتمر باريس لبحث الموقف فى فيتنام، بعد أن قاطعت هذا المؤتمر؟..
- تمام.
- عال.. ما دمنا قد اتفقنا تماماً على تحليلنا للموقف فى فيتنام وللموقف فى الانتخابات الأمريكية. وأن هذه الزيارة لن تكون لها أية جدوى لأن الرئيس الأمريكى مشلول. إنه ما رأيك؟.
- فى ماذا؟..
- هل نقف عند هذا الحد؟..
- ما الذى تقصده؟..
- ألا ترى أنه لا داعى لإضاعة الوقت وعلينا أن نسارع بعمل شئ؟..
- مثل ماذا؟
- هذا هو السؤال.
- ماذا تريد؟
- أنت تعرف ماذا أريد..

- تفضل وأعرض ماذا أريد..
- تفضل وأعرض ما تريد فوراً.
- أريد الآتى.. أريد نفس الأشياء التى طلبتها فى الزيارات الثلاث السابقة.
أطالب بما طالبت به من قبل.
- أطلب بالتحديد..
- بالتحديد أطلب سبعة أشياء...
- أريد الآتى.. أريد نفس الأشياء التى طلبتها فى الزيارات الثلاث السابقة.
أطالب بما طالبت به من قبل.
- أطلب بالتحديد..
- بالتحديد أطلب سبعة أشياء..

(هذه الأشياء قد ذكرتها فى كتابى الذى سيصدر فى أكتوبر القادم فى أمريكا بعنوان "البحث عن الذات" ولذلك أمسك عن ذكرها فى هذه "البحث عن الذات" ولذلك أمسك عن ذكرها فى هذه "الأوراق" فقد جعلت مكانها هى وأشياء أخرى كثيرة تتعلق بالعلاقات المصرية السوفيتية فى هذا الكتاب)

تم تلوث المطالب السبعة الواحد وراء الآخر..

ثم قلت له: حتى لا نضيع الوقت. أرجو أن أجب إلى هذه المطالب. فزيارة نيكسون سوف تنتهى يوم 25 مايو.. وأمانا من هذا التاريخ حتى يوم الانتخابات الأمريكية فى 7 نوفمبر القادم متسع من الوقت لإجابتي إلى هذه المطالب المعقولة، السياسى والعسكرى.. أمانا إذن خمسة شهور كافية جداً.. فإن جاءت الانتخابات الأمريكية بنيكسون طلبنا إليه أن يوضح موقفه فيضع تسوية شاملة للموقف، أو نفرض نحن عليه التسوية عن طريق التحرك العسكرى، كما اتفقنا.

- تمام . موافكك. مائة فى المائة.

وقلت فى نفسى: الحمد لله على هذه النتيجة.

وكان فى حسابى أن أصل إلى مثل هذا الاتفاق مع السوفيت: فهم يعطونى الأسلحة. ويعلنون ذلك للعالم كله. أو نحن نعلنه لليهود..

أو حتى لا داعى لأن نفعل ذلك لأن كل الأسلحة التى تجئ إلينا التى تذهب إلى إسرائيل، معروفة فى العالم كله. فلم تعد هناك أية وسائل لإخفاء شئ. فالأجهزة الإلكترونية الحديثة، وأجهزة التجسس القضاية وجمع المعلومات والرصد الجوى والأرضى فى البحر والبر والجو، قد جعلت من المستحيل على أية دولة أن تخفى شيئاً. فالذى عندنا معروف لإسرائيل، والذى عند إسرائيل معروف لدينا تماماً. لا توجد أسرار مطلقاً. ولكن الأسرار هى: مدى استعداد الإنسان لاستخدام السلاح.. ومتى يتخذ قرار المعركة وكيف يديرها ويكملها. فالجانب الإنسانى الشخصى هو الذى يمكن أن يكون سراً. فأسلحتنا فى حرب أكتوبر معروفة. ولكن المجهود الذى بقى سراً محيراً ومعجزة هو الإنسان.. هو المقاتل.. هو الخطة.. هو القرار والاستمرار..

وبشهادة خبراء العالم كله استحققت قواتنا عظيم الاحترام والتقدير، اليوم ولأجيال بعدنا..

وكان من الحجج التى قدمتها لبرجنيف: أنه من الأفضل أن يعرف الأمريكان واليهود أنكم أعطيتمونا سلاحاً.. ولا مانع أن تبالغوا فى كمية السلاح وفى نوعيته.. فقط لكى يعرفوا أن لدينا قوة مخيفة، وأن وراءنا من يساند قضيتنا.. وما قضيتنا إلا حرصنا على أن تحرك الموقف السياسى عسكرياً..

وكل هذه بديهيات يعرفها برجنيف، أو من هو أصغر من برجنيف ألف مرة.. ولكن هذه هى المحنة التى أمر بها فى كل زيارة أقول وأقول.. تماماً كما يفعل أى إنسان وهو يكرر جدول الضرب مرة بعد مرة.. وعلى الرغم من أن هذا الجدول هو بديهيات حسابية.. لست فى حاجة إلى أن أكررها.. ولا إذا كررتها أن أقولها بحماس.. ولا حتى أن أشعر أننى أقول شيئاً جديداً.. ولكن مع السوفيت، يجب أن أقول الشئ

الواحد ألف مرة، وأن يسمعه هم باهتمام شديد.. دون أن يشعروا بالملل، ولعلمهم ينتظرون أن يصيبني الملل فأزهق، أو تزهق روحى.. قلت وكأننى ما قلت.. وسمعوا وكأنهم ما سمعوا..

ولم تستغرق زيارتى 24 ساعة.. وإنما 27 ، 28 ، 29 إبريل أكثر من المدة المقررة.. أو التى كان يريدونها السوفيت. وأنا لا أحسبها بالساعة. فالوقت لا يهم أقصد الوقت الذى استغرقه فى إقناع السوفيت بموقفى وصدقتى الحقيقة. ولكن العبرة بالنتيجة. والواضح لى الآن أنهم اقتنعوا: أليس برجنىف هو الذى قال؟ أليس هو الذى أعلن سلامة تحليلى للموقف كله؟ ألم يعلن أنه يوافقنى مائة فى المائة؟.

إذن الموقف الآن أمامى هو هكذا: فى الاجتماع السابق أعلن كوسيجين تعهده بالوفاء بكل ما طلبت. وفى هذا الاجتماع أعلن برجنىف اقتناعه التام واستعداده لإجابتى إلى كل مطالبى السبعة. ثم إنهم- وهذا إحساسى الذى لا يخيب- يريدون استعراض قوتهم فى المنطقة. وإن زيارتى هذه جزء من هذا الاستعراض. وربما توهموا أننى لا أعلم ذلك. ومن الأفضل أن يتصوروا أننى بهذه السذاجة. ولا مانع عندى أن أؤكد لهم ذلك. ولكن الذى يهمنى هو أن أحصل على السلاح..

وفى الطائرة عائداً إلى القاهرة عاودتنى كل أفكارى وتكاثرت على رأسى. ولم أنس ما جرى فى سنة الحسم. فهذا شئ لا أنساه. وكيف؟ ثم هذه الوعود وهذه العهود وهذه الوجوه. وأخفيت رأسى بين يدي وتذكرت دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام يوم خرج من الطائف: اللهم إليك أشكو ضعف قوتى. وقلة حيلتى. وهوانى على الناس.. وهوانى على الناس.. وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين!.

وصالحت نفسى على نفسى وقلت: كل شئ يهون من أجل مصر. وقد هان الكثير.

وأنا أتمسك طول الوقت بعبارة واحدة ومعنى واحد، هـ الذى طالعت به الشعب يوم أول مايو بعد ذلك: أنه لا فائدة من العمل من أجل السلام إلا إذا كان السلام له

سلاح يدافع به عن نفسه، ويفرض به كرامة الحق وشرف المبدأ. وإذا ظللنا نتكلم عن السلام مائة سنة من الآن، فلا سلام.. إلا إذا كان هناك استعداد للمعركة، فى هذه اللحظة سوف يكون هناك كلام آخر ومنطق آخر..

وقلت فى خطابى فى عيد العمال أيضاً: إن اهتمامنا بالدعم السوفيتى لا يعنى أن نقلل من قيمة الاعتماد على النفس. نحن الذين سنحارب وليس الاتحاد السوفيتى، ونحن الذين سنقاتل، ولن نترك لغيرنا أن يقاتل بدلاً منا. نحن الذين سندفع الثمن لآمالنا. لأنها آمالنا نحن. وإنما قيمة المساعدات التى تحصل عليها من أصدقائنا أنها تختصر الوقت والجهد.

وقلت أيضاً: من نحن؟ نحن قوى العمل والخير والتقدم والمحبة والسلام. أين نحن؟ نحن فى وسط النضال من أجل الخير والتقدم والمحبة والسلام.. وإن ما نمثله مكتوب له النصر بإذن الله، وما نحاربه مكتوب عليه الهزيمة بإذن الله!

وفجأة - وكل تحركات السوفيت تكون مفاجئة- جاءنى خبر يقول إن وزير الدفاع السوفيتى جريتشكو سوف يصل إلى القاهرة يوم 14 مايو. خير إن شاء الله. وجاء جريتشكو ومعه قائد الطيران كوتاخوف. ولا بد أن يكون هناك شئ خطير. وعرفت أنهم يريدون أن يقوموا باستعراض جوى فى مطار غرب القاهرة.

ما الذى فى مطار غرب القاهرة؟ هناك أربع طائرات ميغ/25.. من ذلك الطراز الذى هرب به أحد الطيارين السوفيت ونزل فى اليابان. وتكاثر الخبراء الأمريكان على الطائرة فكوها قطعة قطعة وعرفوا سرها تماماً. هذه الطائرات هى أحدث ما عند السوفيت وهى تنطلق بسرعة تفوق سرعة الصوت ثلاث مرات وعلى ارتفاع 30 كيلو متراً.. والروس يملكون هذه الطائرات.. ويضعونها فى غرب القاهرة. وهى محرمة على أى مصرى.

وقالوا لنا: إنها ممنوعة على كل مصرى.

قلت : موافقون.

قالوا : لا يقترب منها أحد!

قلت: موافقون.

قالوا : السوفيت فقط.

قلت : موافقون..

قالوا: لا مانع أن تروها . بالعين.

قلت: موافقون. وحتى إذا أردتم ألا يراها أحد.. فلا مانع..

قالوا: من الممكن أن تروها..

وظلت هذه الطائرات فى مكانها على أرضنا ومحرمة علينا.

جاء جريتشكو هذا الصديق العزيز الله يرحمه وقال لى:

- ما رأيك؟

قلت: موافق على ما تريدون.

قال: أن نقوم باستعراض لهذه الطائرات.

قلت: لا مانع أبداً..

طبعاً أنا رأيت هذه الطائرات. إنها متطورة جداً فتحات الموتورات مربعة. وقد سبق بها السوفيت تصميم طائرة الكونكورد التى اخترعها الإنجليز والفرنسيون. هذه الطائرة سنظل جديدة حتى سنة 1990. وليس فى إمكان أية طائرة أخرى أن تلحق بها ولا أى صاروخ! ولما أطلقها السوفيت من مطار غرب القاهرة فوق إسرائيل طاردها الفانتوم. ولكن ما الذى تستطيعه الفانتوم.. إن الفانتوم كانت مثل عربة كارو تطارد سيارة كاديلاك.

أرجع وأقول مرة أخرى: إنهم اشترطوا كل هذه الشروط لى تبقى هذه الطائرات فى مطار غرب القاهرة: فى أيدي السوفيت وللسوفيت ومحرمة تحريماً قاطعاً

على المصريين.. إلا مجرد النظر فى بعيد لبعيد.. وأحنيت رأسى ووافقت. وقلت
لنفسى: يمكن!.

أى يمكن استخدامها فى الاستطلاع وجمع المعلومات من إسرائيل.. يمكن. وأنا
أعلم أن السوفيت يستخدمونها فى التجسس على الأسطول السادس فى البحر الأبيض
المتوسط. أعلم ذلك يقيناً. ولكنى غلبت الأمل على اليأس.. ووضعت مصر فوق
كرامتى. ووافقت..

وذهبت إلى المطار، وأتى السوفيت بطائرة مقاتلة أسمها سوخوى 17 .. من
مزايا هذه الطائرة أن تنتشر جناحيها وأن تطويهما. فإذا أنطوى الجناحان تحولت الطائرة
إلى صاروخ.. إلى قذيفة .. وأصبحت مقاومة الهواء لها أقل، وفى نفس الوقت أصبحت
المساحة المعرضة منها للإصابة أقل أيضاً.. وكل ذلك من أجل أن تكون أسرع.. ولكن
عيب عملية فتح جناحيها وطيهما، أن هذه العملية تتم يدوياً.. وهذا عيب خطير، فهو
يحتاج إلى بعض الوقت. وفى معارك الطيران وبهذه السرعة، ومع استخدام الأجهزة
الإلكترونية التى توجه الطائرات وقذائفها، يجب أن تكون هذه العملية سريعة جداً وتتم
فى ثانية أو أقل.. لأن ثانية واحدة تكفى لتحطيم أية طائرة.. ولكن الأمريكان اخترعوا
طائرات تنتشر جناحيها وتطويهما باستخدام العقل الإلكتروني. وهذا أسرع وأسلم وأكثر
تطوراً.

وطارت الطائرة وارتفعت واختفت بسرعة. وكان السوفيت فى غاية السعادة.
وأنا أقول لنفسى: ربما يجيء الوقت الذى يتدرب فى أولادنا على هذه الطائرات.. ربما
تصبح هذه الطائرات لنا.. ربنا كريم..

وانتهى الاستعراض للطائرات السوفيتية . ومن المؤكد أنه جزء من الاستعراض
المطلوب قبل زيارة نيكسون لموسكو. فأخبار هذا الاستعراض قد ملأت الدنيا.
والطائرات السوفيتية قد رصدتها اليهود وحاولوا مطارقتها. ورصدها الأسطول السادس
وعرف نوعيتها وقدرتها. كل شيء معروف .. وكل شئ بحساب. وجزء من

الاستعراض الكبير. وأين؟ فى مصر وبمواقفة من؟ بمواقفتى! ولماذا؟ للسبب الذى قلته
مراراً: محاولة للتأثير على الرئيس نيكسون وإقناعه بأن السوفيت هنا فى مصر: فى
قلب العالم العربى والشرق الأوسط وأفريقيا.

ومن المؤكد أن هذه المعلومات والمفاهيم قد بلغت الأمريكان واليهود. وهى
موضع بحثهم وتقديرهم. لا شك فى ذلك. إذن لقد وصل السوفيت إلى الهدف الذى
يريدون. وأنا موافق على ذلك تماماً. وفى انتظار ما وعدونى به.

وفجأة - مرة أخرى- وجدت الوزير جريتشكو يقترب منى ويقول: بيان من
اللجنة المركزية..

سألته: معك بيان من اللجنة المركزية؟..

قال : نعم.

سألته: بخصوص ماذا؟

قال: إنهم يريدون أن يصلحوك.

قلت: لا مانع.

قال ومكتوب باللغة الروسية.

قلت : يذاع دون ترجمة وفوراً.

وأندش جريتشكو. أو لكى أكون دقيقاً أقول: إنه أصيب بذهول.

وسألنى: ألا تريد أن تعرف ما به؟..

قلت: لا أريد. ما دامت القيادة السوفيتية ترى أنه بيان بقصد مصالحتى. فهو

بيان لمصلحتى لا شك ولذلك يذاع فوراً.

قال: أريد أن أفهم منك أكثر..

قلت: أنا أعرف وأنت تعرف. أنكم فى حاجة إلى تدعيم موقفكم فى مصر قبل زيارة نيكسون. أنتم فى حاجة أن تؤكدوا لنيكسون أن الأرض تحت أقدامكم قوية فى مصر وفى أرض مصر وفى سماء مصر.. وأنكم قادرون على التحليق فى سماء إسرائيل وفوق الأسطول السادس .. وأنكم سادة هذه المنطقة .. كما أنكم سادة فى فيتنام.. كل ذلك أعرفه أنا.. وتعرفه أنت..

وسكت الرجل ولم ينطق بكلمة واحدة.. ثم قلت له لا داعى للترجمة. لقد أمرت بإذاعته باللغة الروسية.. وأكثر من ذلك..

وسألنى : ما هو الذى أكثر من ذلك؟

وتلفت إلى حسنى مبارك، وكان وقتها قائداً للطيران وقلت له: يا حسنى.. لقد قررت منح جريتشكو وكوتاخوف وكل الضباط السوفيت نياشين.. فاتصل بالقائد العام وأبلغه هذا القرار!.

وكان هدفى من وراء هذا كله أن أساهم فى أن يبدو السوفيت أقوىاء أمام الأمريكان. يهمنى ذلك. فهم قد وعدوا بإجابة المطالب السبعة. وعدنى برجنيف وأكد لى ذلك وسط جو من التفاهم والاتفاق التام.

وازدادت دهشة جريتشكو ورفاقه.. وأذيع البيان بالروسية وبالعربية وباللغات الأوروبية الأخرى..

وأقولها للتاريخ: إنه جاء فى هذا البيان أن الاتحاد السوفيتى قد زود مصر بقاذفات طويلة المدى وأسرع من الصوت.

وفجأة وبعد زيارة جريتشكو جاءتنى رسالة من الرئيس حافظ الأسد يقول لى: وأين هذه القاذفات التى جاءت فى البيان السوفيتى؟..

وكان ردى على الرئيس حافظ الأسد: لا قاذفات ولا أى شىء. إنها مسائل دعائية قبل زيارة الرئيس نيكسون!.

وجاعنى رد من الرئيس الأسد يقول لى فيه: أن الضباط عندنا يسألون: ولماذا لا نحصل على مثل هذه الطائرات التى حصلت عليها مصر. ؟ فأرجوك ألا تعود إلى هذه المسائرة فى الدعاية!.

ورددت على الرئيس الأسد مرة أخرى قائلاً: لقد ساهمت فى هذه الحملة الدعائية ، فهم فى حاجة إليها ونحن فى حاجة إليهم .. ثم إنهم أصدقاء.

وسافر جريتشكو والوفد العسكرى المرافق له .. وبدأت موسكو تستعد لاستقبال الرئيس نيكسون، ليتفرج العالم كله على الاستعراض الكبير الذى اسمه: الوفاق بين الدولتين العظميين!.